الحرمان الشريفان
في كتاب
«الحقيقة والمجاز»

تأليف: عبد الغني النابلسي ت ١١٤٣هـ.ق
محمدعليالمقدادي

لا شك في أنّ السفر قد تولّد ونشأ من حين وجود البشر، فقد سافر الإنسان ورحل منذ أن خُلق؛ لمقاصد وأغراض شتّى، منها الزيارة...
وكتابة الرحلة من الأعمال التي قام بها الكثير من العلماء وغيرهم، وصارت ذخيرة طائلة وتراثاً عظيماً للشعوب والمجتمعات، ولأجل ذلك قام الأُدباء والمثقّفون بنشر وتحقيق العديد من الرحلات، وازدهر أدبها في العصور القديمة والأخيرة.
وبلاد الحجاز خاصّةً مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة أصبحتا مركزين تجاريين من قديم الدهر ولوقوعهما في طريق التجارة، ثمّ بعد أن جاء الإسلام ونزل القرآن الكريم في هذين الحرمين الشريفين. وصارت مكّة المكرّمة مركزاً للبعثة المحمّدية وقبلةً لكلّ المسلمين في أرجاء الأرض، وبعد أن هاجر منها الرسولﷺ إلى المدينة الطيّبة و توفي فيها، تميّزت بلاد الحجاز عن غيرها بوجود هذين المعلَمين البارزين للزيارة وأداء الفريضة. فقد تشرّف المسلمون بزيارة الحرمين الشريفين لأداء

النسك وزيـــارة الرســـول الأمـــينﷺ، فكـــثرت الرحـــلات الســـنوية وغيرالسنويّة إليهما.

لقد كتب أهل الثقافة والعلم من العرب والعجم؛ حول هـذين المـركزين وعنالسفر إليهما وفضيلته و آدابه و فوائده أكثر من كتابتهم عن سائر البلاد الاخرى، مماجعل الرحلة الحجازية أكبر ثروة فـي عـالم الثـقافة والمعرفة وأدب الرحلات. وقد بذل الأسـتاذ حـمد الجـاسر كـلّ جـهوده لتعريف كتب الرحّالة العرب، وقام بكتابة مـقالات عـديدة فـي مـجلّته (مجلّة العرب)،إلا أنها كانت أقل مماكتبه المسـلمون غـير العـرب، فـقد كتبوا رحلات كثيرة بشتّى لغاتهم، فيا حـبّذا لو يُـنشأ مـركز إسـلامي لترجمتها؛ لكي يستفيد منها الباحثون والذين يحبّون أن يـعلمواكـيف كانت تتم هذهالرحلات، وكيف تؤدى المناسك و... من صدر الإسلام إلى زماننا هذا.

الحقيقة والمجاز

وكان من جملة الكتب التي دوّنت حول الرحلة الحـجازية، هـذا الكـتاب المسمّى بـ«الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز» لمؤلّفه العالم الأديب، الحنفي المذهب، الشيخ عبد الغني بن إسماعيل النابلسي (١٠٥٠ إلى ١١٤٣هـ. ق). وقد قام بنشر هذا الكتاب وتـحقيقه مركز تحقيق التراث بجمهورية مصر العربية سنة ١٩٨٦م على طريقة أفسيت.

إنّ الشيخ تشرّف لزيارة الحرمين الشريفين ثلاث مرّات، والرحلة التي صدر لها هذا الكتاب لم تكن رحلته الوحيدة، فإنّ له رحـلتين أُخـريين. أُولاهما في سنة ١١٠٠هـ ق، وثانيتهما في سنة ١١٠١هـ. ق. امّا الرحلة الأخيرة فهي صارت رحلة كبرى للمؤلّف، وقـد قـام بـتأليف يـوميّاتها

سنة١١٠٥هـ. ق؛ وفرغ من تدوينها سنة ١١١٠هـق.

هذا الكتاب يحتوي علىٰ ثلاثة أقسام:

١ ـ السفر إلى البلاد الشامية، من الصفحة ١ إلى الصفحة ١٦٩.

٢ ـ السفر إلى مصر، من الصفحة ١٧٠ إلى الصفحة ٢٩٣.

٣ ـ السفر إلى الديار المقدّسة والأقطار الحجازية من الصفحة ٢٩٤ إلى الصفحة ٤٩١.

وهذا القسم الأخير قد حظي بأكثر صفحات الكتاب، ونحن اقتصرنا على القسم الأخير لما فيه من الأهمّية، واقتصرنا أيضاً على ما كتب حول الأماكن والآثار؛ وبعض العقائد التي كانت سائدة في ذلك الزمان، فالكتاب وإن كان مملوءاً بالأشعار والحكايات الغريبة وتعريف الكتب الفقهية والتاريخية واللقاءات الكثيرة وغيرها، ويوجد فيه اشتباهات أيضاً، إلّا أنّ التعريف بكلّ هذا يحتاج إلى مجال أوسع من هذا المقال.

إنّ النابلسي قد بيّن غرضه من هذه الرحلة في الصفحة ٣ و٤ من كتابه، وقال:

«لقد كنتُ فيما تقدّم من الزمان، مع جملة من الأصحاب والإخوان، والتبرّك بنفحات مجالسهم وهاتيك الحضرات، ويكون ختم ذلك بالحجّ الشريف، وزيارة النبيّﷺ في ذلك البلد المنيف، إلى أن هيّأ الله تعالى لنا الأسباب، وقطع عنّا العوايق، وفتح علينا هذا الباب... وكان ذلك في أواخر فصل الصيف، في شهر آب، فكنّا نتمتّع بمن ننزل عليهم نزول الضيف... لا نأتي إلى قرية إلّا ويقوم لنا أهلها بما يجب من الإكرام، ولا ندخل إلى بلدة إلّا بغاية المهابة والاحتشام... نجتمع بأهل الصلاح والدين... ونزور الأولياء، ونتبرّك بقبور السادة الأصفياء ونتباحث مع العلماء... وقضينا فريضة الحجّ، مع كمال العجّ والثّج، ثمّ رجعنا إلى

بلادنا دمشق الشام... فأردنا أن نثبت ذلك في هذا الكتاب؛ ليكون مذكّراً لنا بنعم الله تعالى علينا وعلى بقيّة الأصحاب، وإنّ في ذلك لعبرة لأُولي الألباب، وقصدنا التحدّث بنعم الله تعالى بين الأحباب».

بدأ المؤلّف رحلته يوم الخميس، غرّة المحرّم ١١٠٥هـ. ق، وانتهت في الخامس من شهر صفر ١١٠٦هـ. ق. ورافقه ابنه وبعض أصحابه، فاستغرقت رحلته ٣٨٨ يوماً، قضى منها ٩٩ يوماً في الطريق، من دمشق إلى حدود مصر الشرقية، ثمّ قضى في مصر ٨٣ يوماً، ثمّ قضى ٥٤ يوماً في الطريق من مصر إلى الحجاز، ثمّ قضى ١٠٩ أيام في البلاد الحجازية، ثمّ قضى ٤٣ يوماً في طريق عودته من الحجاز إلى الشام، فهو تشرّف لزيارة المدينة المنوّرة مرّتين، مرّة قبل الحجّ ومرّة بعده.

❊❊❊

بسم الله الرحمن الرحيم

وقوع الحرب بين أعراب البادية وأمير الحجاز

وحين وصل الشيخ النابلسي إلى ينبع البحر، أخبروه أنّه قد وقعت الحرب بين أعراب البادية ـ قبيلة حرب ـ وبين أمير الحجاز، فخرج الشيخ من ينبع البحر حتّى وصل إلى ينبع النخل، وهي قرية كبيرة ذات نخل كثير ومياه غزيرة، وهي المنزل الرابع والعشرون من منازل الحاجّ، وبقي على الحاج إلى مكة ستّة منازل: ١ ـ منزل بدر ٢ ـ منزل القاع ٣ ـ منزل رابغ ٤ ـ منزل قديد ٥ ـ منزل عسفان ٦ ـ منزل وادي فاطمة. ولقي الشيخ شريف الحجاز قرب ينبع النخل.

قال المؤلِّف ـ الصفحة ٣١٧ ـ: «ثمّ إنّنا سألنا عن السير إلى المدينة المنوّرة فأخبرونا أنّ العرب الذين هم عرب حرب، حاصل بينهم وبين أمير الحجاز سعد ابن زيد منازعة وحرب، وأنّهم واقفون في وادي الصفراء، يمنعون كلّ من سار إلى المدينة، وقد ظهرت منهم للزائرين خصلة قبيحة كمينة، وأن لا محيص إلّا بالسفر إلى جوار سعد بن زيد الهاشمي أمير الحجاز، فإنّه يقدر إنفاذنا إلى تلك الجهة والجواز، وأمّا على غير هذا الوجه المذكور، فإنّه لا يمكن أصلاً كما قال الشاعر المشهور:

أيا دارها بالخيف إنّ مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال

فلمّا رأينا الأمر كذلك وتحقّقنا صعوبة هذه المسالك، طلبنا مَن نكتري معه خمسة من الجمال ونسير إلى جهة سعد بن زيد، لنبلغ به غاية الآمال... ثمّ ركبنا وسرنا فوصلنا وقت العصر إلى ينبع النخل على ماء جاري في وجه الأرض؛ عذب زلال، فشربنا وسقينا الدواب...، ثمّ ركبنا وسرنا قليلاً بين ذاك النخيل، وإذا بخيام

شريف الحجاز سعد بن زيد وعظيم ذلك الرحيل، فدخلنا عليه في رفيع ذلك المضرب الجليل، وشريف ذلك المخيّم الجميل، فتلقّانا بالقبول والاحترام، وأقبلنا عليه بلطائف التحية والسلام، وجلسنا معه حصّة من الزمان، نتحادث في وقايع هذا العصر والأوان، ثمّ أمر لنا بخيمة واسعة... ثمّ إنّنا طلبنا من حضرة الشريف المحترم أن يرسلنا إلى المدينة المنوّرة، فقال لنا: لو أرسلنا معكم مائة فارس أو أكثر لا يمكن ذلك في هذه الأوقات المكدرة، فإنّنا في محاربة هذه القبايل من عرب حرب، وعندنا هذه العربان المستكثرة، فاصبروا أيّاماً حتّى نذهب نحن وتذهبون معنا في عافية وسلامة...»[1].

شوق لزيارة الحبيب

صار المؤلِّف متعباً من طول الوقوف في الطريق، وأنشد بعض الأشعار شوقاً لزيارة المدينة المنوّرة.

قال المؤلِّف ـ الصفحة ٣٢١ ـ: «... يوم الأحد الحادي والعشرون ومائتان وهو اليوم الخامس عشر من شعبان، وقد زاد بنا الشوق إلى زيارة الحبيب، وكثر الحنين إليه والنحيب:

وأكثر ما يكون الشوق يوماً ... إذا دنت الديار من الديار

ولله درّ ابن أبي جابر المغربي حيث قال:

إذا بلغ المرء أرض الحجاز ... فقد نال أفضل ما أمّ له
وإن زار قبر نبيّ الهدىٰ ... فقد أكمل الله ما أمّله

وقد حال بيننا وبين زيارته والسفر إليه مع قرب المزار، قبيلة حرب المتفرّقة الأفخاذ في هاتيك الأقطار، فقلنا في ذلك من نوع الأشعار:

ألاٰ يا رسول الإله الذي ... لداء الجفا زورة منه طب

إلى كـــم وقــد قــرب المــلتقى ومــا صـار وصـل ولا زال حـجب
لئــن كــان بـيني وبـينك حـرب[٢] فــما كــان بــيني وبــينك حـرب

وهذا المكان الذي نحن نازلون فيه مع حضرة الشريف حفظه الله تعالى الذي هو ينبع النخل وما حوله من القرى، يسمّيه أهل الحرمين بالشام، فلعلّ ذلك لكثرة مائه وفواكهه، فأشبه بلاد الشام؛ أو لغير ذلك، فإذا أرادوا الذهاب إليه قالوا: نريد أن نذهب إلى الشام، كما سمعنا ذلك منهم...»[٣].

جبل رَضْوىٰ

قال المؤلِّف: «... اليوم السادس عشر من شعبان، ولم نزل في ذلك المكـان، وكنّا نازلين تحت جبل يسـمّى جـبل رَضْـوىٰ... وذكـر السـمهودي في تـاريخ المدينة تلخيص الوفا قال: رضوى بالفتح كسكرىٰ جبل على يوم من ينبع وأربعة أيّام من المدينة... وتزعم الكيسانية أنّ محمّد بن الحنفية مـقيم بـه حـيٌّ يـرزق، انتهى.

قلت: وهو محمّد بن عليّ[٤] بن عبد المـطّلب، أبـو القـاسم، ويـقال عـبدالله الهاشمي المدني المعروف بابن الحنفية، وهي خولة بنت جعفر من سبي اليمامة. وقال الزبير ابن بكّار: وتسمّيه الشيعة المهدي...»[٥].

أقول: هذه فلتة ظاهرة من المؤلّف ومن ابن بكّار؛ لأنّ الشيعة هم الإمـامية وهم غير معتقدين أصلاً بإمامة محمّد بن الحنفية وليس هو المراد بالمهدي عندهم، بل المهدي عند الإمامية هو: الإمام الحجّة المهدي بن الحسن العسكري بن عـلي الهادي بن محمّد الجواد بن عليّ الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمّد الباقر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام.

إنهاء الحرب بين الشريف وحرب

لقد نقل النابلسي قصّة إنهاء الحرب بين شريف الحجاز وقبيلة حرب، وذلك

بسبب حضور نحو سبع وثلاثين قبيلة من قبائل المنطقة، واتّفقوا على غزوهم ضدّ «حرب» ولكن كلّ المشاكل رفعت بموت شيخ قبيلة حرب.

قال المؤلِّف: «... وكان الشريف يرسل لنا في كلّ ليلة من يحرسنا بلا طلب منّا، فيمكث الاثنان والثلاثة من عبيده حول خيمتنا إلى طلوع الصباح، حذراً علينا من همج الأعراب الذين معه، فضلاً عن أعدائه القباح... إلى أن أصبحنا في يوم الجمعة، السادس والعشرين ومائتين، وهو اليوم العشرون من شعبان، فأتى الخبر لحضرة الشريف أنّ شيخ قبيلة حرب واسمه «مُضَيان» ـ بضمّ الميم وفتح الضاد المعجمة وفتح الياء المثناة التحتيّة مشدّدة بعدها ألف ونون ـ قد مات بداء البطن، فاستبشر الجميع، بخذلان العدوّ الفظيع، فلمّا أصبحنا في يوم السبت... زاد اشتياقنا إلى المدينة والبقيع...»[٦].

زيارة قبر الحسن المثنّى ابن الإمام الحسن المجتبىٰ عليه السلام قرب الجابرية

قال المؤلّف: «... فأرسل إلينا الشريف بكرة النهار، فركبنا وركب معنا واحد من جماعتنا وركب هو بنحو مائة فارس وابنه الشريف سعيد حفظه الله تعالى كذلك ركب بفرسان وقال لي: نذهب إلى زيارة الإمام حسن المثنّى ابن الإمام حسن ابن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، فسرنا نحو ساعة وإذا مكان هناك في داخله بيت وفي ذلك البيت قبر، عليه جلالة ومهابة فوقفنا وقرأنا الفاتحة ودعونا الله تعالى راجين من كرمه وفضله حصول الإجابة، وقلنا في ذلك من النظام بحسب ما اقتضاه الإلهام:

زرنا الإمام المثنّىٰ والقلب فيه تَهنّىٰ
فإنّه الحسن ابن السبط الإمام المكنّىٰ
بالسيّد الحسن ابن الزهراء حسّاً ومعنىٰ
بنت الرسول إمام الأنام إنساً وجِنّا...»[٧]

إحراق سعد بن زيد قرية سويقة ونخيلها

سويقة قرية من قرى ينبع النخل. قال المؤلّف: «... هي المشهورة الآن عندهم بسويق منازل بني إبراهيم ... وقد وجدناها الآن خالية ليس بها أحد، وقد رحل أهلها وخرجوا على الشريف سعد بن زيد؛ لأنّهم حالفوا قبايل «حرب» فذهبوا معهم يساعدونهم على قتاله، وهذه القرية فيها ماء جارٍ ونخل كثير... فجلسنا على حافّة ذلك الماء وشربنا القهوة مع الشريف سعد وولده وبقيّة من كان من فرسانهما، وقد أمر الشريف بحرق بيوت القرية، وإنّا لنرى النار تتأجّج في جدرانها التي هي من أخشاب النخل اليابس، والهواء يزيدها تأجّجاً والتهاباً، وقد أمر بقطع النخل، فيصعد العبد الأسود إلى أعلى النخلة ويقطع جمارها وعراجينها، فتسقط العراجين إلى الأرض، كلّ عرجون فيه البسر الأخضر... ثمّ قمنا من ذلك المكان وركبنا وسرنا نحن ومن كنّا معهم جميعاً حتّى أقبلنا على قرية الجابرية ـ نسبة إلى جابر ـ وهي بالقرب من قبر الإمام المثنّى الذي ذكرناه فيما مرّ، فخرج أهل القرية يلعبون بالأسلحة لملاقاة الشريف،...»[٨].

زيارة قبر الحسن المثلّث

قال المؤلّف: «... اليوم السادس والعشرون من شعبان، فعزمنا على السير إلى المدينة المنوّرة... وأرسل ـ الشريف سعد ـ معنا فارساً من فرسانه، فذهب بنا على حسب طلق عنانه، بمكتوب منه إلى ولده الشريف مساعد... فركبنا وسرنا بعد الدعاء له وتوديعه... فمررنا على قرية سويقة المذكورة فيما تقدّم، ثمّ سرنا قليلاً فوصلنا إلى قرية سويق وقت الظهر، وكأنّما القريتان [سويقة وسويق] كانتا في الزمان المتقدّم بلدة واحدة، وأسوارها المتهدّمة الآثار بذلك شاهدة، وهي الآن مسكن الأشراف من بني إبراهيم وهم من ذرّية الحسين ابن الإمام عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه الكريم، ووجدنا الشريف مساعد هناك... ونزلنا عنده هناك في بيت من بيوت القرية المذكورة... وفي تلك القرية بساتين كثيرة من النخيل

والفواكه والموز ونهر كبير تتشعّب منه سواقي جارية، وأخبرونا أنّ هناك قبر الإمام الحسن المثلّث، وهو الحسن المثلث ابن الحسن المثنّى ابن الحسن الأوّل وهو سبط النبيّ ﷺ ابن فاطمة الزهراء زوج عليّ رضي الله عنهم، فقرأنا الفاتحة ودعونا الله تعالى، ثمّ بينما نحن جالسون هناك وإذا برجل من العرب جاء من الشريف سعد بن زيد بمكتوب إلى ابنه مساعد فقرأه وقال لنا: قد عيّن الشريف أبي معكم هذا البدوي من عرب جُهينة، واسمه رُوَيشد ـ بصيغة التصغير ـ يأخذكم إلى المدينة، ففرحنا بذلك غاية الفرح، وزال عنّا ما كان عندنا من التعب والترح...»[٩].

المدينة المنوّرة

إنّ الشيخ النابلسي دخل المدينة المنوّرة في اليوم الثالث من شهر رمضان المبارك، بعد أن ذهب الثلثان من ليلته، وقد أغلق باب سور المدينة وكان يفتح كلّ يوم عند أذان الفجر، وصام هو وابنه ومن معه لهذا اليوم الثالث، بعد أن أكلوا السحور خارج سور المدينة المنوّرة.

وقد نقل الشيخ النابلسي في كتابه عن بعض الشعراء قطعة في مدح الرسول الأمين ﷺ:

يا شفيع العصاة أنت رجائي ... كيف يخشى الرجاء عندك خيبه
وإذا كنتَ حاضراً بفؤادي ... غيبة الجسم عنك ليست بغيبه
ليس بالعيش في البلاد انتفاع ... أطيبُ العيش ما يكون بطيبه[١٠]

* * *

زيارة قبر النبيّ ﷺ ومحرابه

قال المؤلّف: «... فقمت أنا وابني وآخر من جماعتي ودخلنا إلى المدينة، وأبقينا بقيّة جماعتنا عند الباب، لحراسة الأسباب والدواب، ثمّ توجّهنا فقلت لمن

معنا: خذنا على باب السلام، لندخل منه بسلام، فاشتبه عليه الحال، وكان سبق له الزيارة قبل هذه السنة بأعوام وأحوال، فأدخلنا من باب الرحمة، حتّى دخلنا إلى الحرم الشريف، فوجدنا الجماعة في صلاة الصبح والزحمة، فقلت له: خذنا إلى شبّاك النبيّ ﷺ لنبدأ بالزيارة، ووصلنا إلى مرادنا... وصلّينا بقرب محراب النبيّ ﷺ في الروضة الشريفة صلاة الصبح مع الإمام... ولنا في ذلك العهد من النظام بحسب ما اقتضاه المقام:

ليت شعري في يقظتي أم منامي ... إنّني داخل بباب السلام
وعلى أحمد النبيّ صلاتي ... وعلى أحمد النبيّ سلامي...
كنتُ أرجو زيارةً منه حتّى ... حقّق الله بُغيتي ومرامي...
وترى الناس في الشبابيك شتّى ... حول طه الرسول والشوق نامي
بين باكٍ وخاشعٍ بجواه ... يتشكّى وقائم باصطلام...
والقناديل أوقدت وشموع ... مشرقات في قبضة الخدّام...»[١١]

بيت الإمام جعفر الصادق عليه السلام

إنّ الشيخ النابلسي ذهب إلى بيت شيخ الحرم يوسف آغا الطواشي، وكان في بيت شيخ الحرم محراب، وكان يشتهر هذا البيت، بـ«بيت الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام».

قال المؤلّف: «... ثمّ أخذ بيدي يوسف آغا... وذهبنا إلى داره شرقي الحرم الشريف، خارج باب النساء، وأنزلنا مع جماعتنا في داخل داره في مكان يقال: إنّه بيت جعفر الصادق، وفيه محراب، ونحن صائمون في ذلك اليوم من شهر رمضان... وصلّينا الظهر والعصر والمغرب والعشاء والتراويح في الروضة الشريفة، وزرنا حضرة النبيّ ﷺ، ورجعنا إلى منزلنا، ولله درّ الإمام أبي العبّاس أحمد المقري عند زيارته الحضرة النبويّة حيث قال:

إليك أفـــرّ مـــن زللـــي ... فـــرار الخـــائف الخـــجل
وكـــان مـــزار قـــبرك بـــالـ ... ـــــمدينة مـــنتهى أمـــلي...
فـــتهديني إلى رشـــدي ... وتـــــمنعني مـــن الزلل
وتـــحملني عـــلى ســـنن ... يـــؤمنني مـــن الوجـــل
فأنت دليـــل مـــن عُـــميت ... عـــليه مســـالك السُـــبلِ
وإنّك شـــــافعٌ بـــــرٌّ ... ومـــؤئلنا مـــن الوهـــل
وإنّك خـــــير مـــبتعث ... وإنّك خـــاتم الرســـل...
و ألحـــــــقني بـــجنّاتٍ ... لدى درجاتها الأُوَل ...»[١٢].

ثمّ نقل المؤلّف مائة اسم للمدينة المنوّرة وقال: «وللمدينة أسماء كثيرة، وكثرة الأسماء تدلّ على شرف المسمّىٰ» وذكر تلك الأسماء في الشعر وذكر أيضاً سور المدينة وسكّتيها الطويلتين المشتملتين على حوانيت وبيوت وقصور وأسواق، ونقل أسماء الأزقّة وقال: «إنّها كثيرة يتشعّب بعضها من بعض، منها الأزقّة الضيّقة جدّاً، ومنها الواسعة كالمعتاد...»[١٣]. ثمّ ذكر أبواب الحرم النبوي الشريف الأربعة، أعمدته ومناراته وآداب وكيفيّة صعود المؤذّن إلى المنارة للأذان و...

قال المؤلّف: «وفي حائط الحرم الشرقي شبّاك مطلّ على الطريق قبالة الحجرة الشريفة، تمرّ الحجّاج عليه بجمالهم ودوابّهم بقصد التبرّك وزيارة النبيّ ﷺ، وعموم البركة للإبل والدواب، فأبواب الحرم النبوي الأربعة؛ بابان يفتحان على الغرب، باب السلام وباب الرحمة، وبابان يفتحان على الشرق، باب البقيع وباب النساء، وطول الحرم النبوي الشريف من الحائط القبلي إلى الحائط الشمالي، اثنان وسبعون ذراعاً، كلّ ذراع ثلاثة أشبار، ومن الحائط القبلي إلى آخر المسقوف منه، اثنان وعشرون ذراعاً، ومن أوّل غير المسقوف إلى الحائط الشمالي ثمانية وأربعون

ذراعاً، وعرضه من المشرق إلى المغرب ستّة وثلاثون ذراعاً.

وجملة العواميد التي في الحرم الشريف، مائتان وواحد وتسعون عموداً، فالعواميد التي داخل المسقوف من الحرم مائة وثلاثون عموداً، وعواميد الرواق الغربي الذي في صحن الحرم أربعة وأربعون عموداً، وعواميد الرواق الشمالي ستّة وخمسون عموداً في أربعة صفوف.

وفي صحن الحرم الشريف قبّة كبيرة يحيط بها جدران أربعة، وبابها يفتح إلى الشرق لوضع الشمع والزيت، وبقربها مكان فيه نخلتان أو ثلاث نخلات، وبئر ماؤه لطيف فيه بعض ملوحة.

وللحرم الشريف النبوي خمس منارات عاليات مرتفعات في الهواء يتراسل فيها المؤذّنون في وقت السحر، وفي الأوقات الخمسة بالأذان والصلوات على النبيّ ﷺ، فإذا دخل وقت الصلاة يأتي رئيس المؤذّنين إلى شبّاك النبيّ ﷺ ويسلم عليه ويقرأ الفاتحة، ويصلّي على النبيّ ﷺ بأعلى صوته، ويفتح باب المنارة التي عند الحجرة الشريفة، ويدخل وحده بالأدب، ويقفل الباب من الداخل ثمّ يصعد ويبتدي هو بالأذان، وبقيّة المنارات الأربع إذا سمع المؤذّنون صوته بالصلاة على النبيّ ﷺ عند الشبّاك صعدوا إليها، فإذا أذّن أذّنوا، وتسمّى تلك المنارة «الرئيسية» فإذا فرغوا من الأذان يبتدي الرئيس بالصلاة والسلام على النبيّ ﷺ فيتبعه الثاني ثمّ الثالث، ثمّ الرابع، ثمّ يبتدي الرئيس فيتبعه الباقون كذلك، واحد بعد واحد، على ثلاث أو أربع مرّات، ثمّ يختم الرئيس فيختمون بعده بالترتيب، فيكون ذلك على نحو ساعة.. وهذا الوضع في الأوقات الخمسة كذلك»[١٤].

أئمّة الحرم النبويّ الشريف وخطباؤه

قال المؤلّف: «وللحرم الشريف خمسة عشر إماماً، منهم الحنفيّون، ومنهم الشافعيّون، وله أحد وعشرون خطيباً، منهم اثنا عشر خطيباً حنفيّون، وثمانية خطباء شافعيّون، خطيب واحد مالكي، فالأئمّة يصلّون بالنوبة في كلّ يوم إمام

واحد من الحنفية وإمام من الشافعية، فيبتدئون من الظهر إلى الصبح، والإمام الشافعي يصلّي أوّلاً، ثمّ الإمام الحنفي إلّا في المغرب، فيتقدّم الإمام الحنفي لكراهة تأخير المغرب عنده. ويصلّي الإمام الحنفي يوماً في محراب النبيّ صلى الله عليه وآله الذي في الروضة الشريفة، فيصلّي الإمام الشافعي في ذلك اليوم في المحراب الذي خلف المنبر (محراب السلطان سليمان)، ثمّ في ثاني يوم يصلّي الإمام الشافعي كذلك ويصلّي الحنفي مثل ما صلّى هو أوّل يومٍ»[١٥].

بقيع الغرقد

قال المؤلّف: «ثمّ إنّنا ذهبنا إلى زيارة تربة البقيع وما فيها من قبور الصالحين... وهذه التربة واسعة مشتملة على مشاهد شريفة لجماعة من الصحابة وغيرهم. قال السمهودي: وفي مدارك عياض عن عياض عن مالك: أنّه مات بالمدينة من الصحابة نحو عشرة آلاف وهناك من سادات أهل البيت والتابعين ما لا يحصىٰ، غير أنّ غالبهم لا يعرف قبره ولا جهته، لاجتناب السلف البناء والكتابة على القبور مع طول الزمان، فممّا عرف من ذلك مشهد إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وآله، وهناك قبر عثمان بن مظعون رضي الله عنه، روي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبيه، لمّا توفي إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وآله أمر أن يدفن عند عثمان بن مظعون، فرغب الناس في البقيع وقطعوا الشجر واختارت كلّ قبيلة ناحية... ومشهد العبّاس بن عبد المطّلب، والحسن بن علي، ومن معه من آل البيت. وذكر ابن النجّار: أنّ مع الحسن في قبره ابن أخيه زين العابدين، ومحمّد الباقر بن زين العابدين وجعفر الصادق بن محمّد الباقر ومعهم أيضاً فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله بقرب المحراب، وقدّمنا أنّ قبرها ـ الكلام للنابلسي ـ في بيتها بقرب الحجرة الشريفة وهو المشهور والله أعلم. وهذان المشهدان متقاربان في أوّل البقيع، وعلى كلّ واحد منهما بنيان وأبواب تقفل وتفتح للزيارة، ولمشهد العبّاس قبّة شامخة وله بابان: باب شمالي وباب غربي، ومشهد زوجات النبيّ صلى الله عليه وآله وفيه أربعة قبور ظاهرة، ولا يعلم تحقيق

من فيها منهنّ وعليه قبّة لها باب يفتح للزيارة وهو بالقرب من المشهدين المذكورين... فوقفنا عند تلك المشاهد وقرأنا الفاتحة، ودعونا الله تعالى، ودخلنا إلى بعضها وجلسنا فيها متبرّكين بأنوار تلك الأرواح الطاهرة والأسرار الظاهرة، ومشينا من أوّل البقيع إلى آخره والتمسنا البركات ودعونا الله تعالى بأنواع الدعوات وفضايل هذه المقبرة بقيع الفرقد كثيرة كثيرة»(١٦).

أقول: بما أنّ للشيخ النابلسي حظّاً وافراً في الشعر، فقد نظم أشعاراً عند كلّ موقف وعند زيارة قبر من قبور الصالحين، أو شخص جليل سواء أكان حيّاً أم ميّتاً. فقد أنشد شعراً عندما زار البقيع وقبور الأئمّة المدفونين فيه:

قد نعمنا بقبّة العبّاسِ ... وبآل البيت الشريف الراسي
يالها في البقيع من أفق نور ... ضاء بين القبور كالنبراسِ..!
والإمام المفضّل الحسن السبط ... وأخوه مطهّر الأرجاس
وعليّ نجل الحسين وزين ... العابدين الذي به إيناسي
وابنه الباقر الذي بقر العلم ... بكشف عن أصله ومساس
وكذا الصادق ابنه جعفر الصدق ... ومن طاب في أجل غراس
نورهم ساطع بها وهداهم ... جلّ للاقتداء والاقتباسِ
صلوات الإله منه عليهم ... كلّ حين مع السلام المواسي..(١٧)

حلقات التدريس

إنّ الشيخ النابلسي ـ بعد أن طلب منه بعض طلّاب المدينة المنوّرة أن يدرّس هناك ـ بدأ بالتدريس وذلك بعد أن قرّر أن لا يدرّس في المدينة إجلالاً لنبيّ الله الأكرم صلى الله عليه وآله.

قال المؤلِّف: «... وكنت لمّا دخلت المدينة على شكل المذهول الطايش العقل من حين دخولي إليها، لا أتكلّم في شيء من العلوم، ولا أبحث مع أحد في منطوق

ولا مفهوم، هيبةً من الحضرة المحمّدية وإجلالاً، وحقارة لنفسي وإذلالاً ... حتّى وردت علينا جماعات ممّن في المدينة المنوّرة يقرؤون علينا في منزلنا، فكنّا نبقى في الدرس إلى وقت الظهر ...»[١٨].

التبرّك بشَعر النبيّ ﷺ

قال المؤلِّف: «... وكان رجل من علماء الهنود اسمه غلام محمّد وكنيته أبو محمّد يقرأ علينا ... الفتوحات المكّية للشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي ... وكان يخبرني أنّ في قطر الهند عند أُناس متعدّدين في بلاد متعدّدة شعرات من شعر النبيّ ﷺ ... وأخبرني عن رجل من الصالحين في الهند أنّه يخرج ذلك في كلّ سنة مرّة يوم التاسع من شهر ربيع الأوّل ويجتمع عنده ناسٌ كثيرون ... وقد نقل بعض المؤرِّخين ـ والكلام لازال للنابلسي ـ بأنّ الملك العادل نور الدين الشهيد كان عنده في خزائنه شعرات من شعر النبيّ ﷺ وإنّه لمّا مات أوصى أن توضع في عينيه وأنّها الآن موضوعة في عينيه معه في قبره، وقالوا: ينبغي لمن يزوره أن يقصد التبرّك بذلك أيضاً، وهو الآن مدفون عندنا في دمشق الشام، في مدرسته التي بناها للعلماء والطلبة، وعليه قبّة رفيعة البناء ...»[١٩].

زيارة الحجرة الشريفة من الداخل

قال المؤلِّف: «ذهبنا إلى الحرم الشريف فصلّينا الظهر بعد زيارة النبيّ ﷺ ثمّ صلّينا العصر على عادتنا واجتمعنا بشيخ الحرم، فقال لنا ابتداءً: تريدون أن تدخلوا إلى داخل الحجرة الشريفة؟ فقلنا له: إن أراد الله تعالى كان ذلك، وكيف لنا بذلك؟ فقال: إن أردتم في هذه الليلة وقت المغرب، وإن أردتم في وقت الصباح فقلنا له: وقت المغرب أقرب.

فأرسل إلى الطواشية يأمرهم بإدخالنا، فشددنا فوق القبا من الصوف الأحمر الذي كنّا نلبسه شالة من صوف على هيئة الخدّام، وفتح باب الحجرة الذي هو باب فاطمة رضي الله عنها، ودخل قدّامنا طواشي من الخدّام، ووراءنا طواشي أُخر،

وأعطونا شعلة من الحديد في رأسها شعلة من نار، والطواشي معه إناء من الفخار لوضع المشعلة فيه حتّى جئنا في داخل الحجرة... ورفعت يديّ وقرأت الفاتحة ودعوت الله تعالى...»[٢٠].

تمور المدينة

بما أنّ للشيخ النابلسي وقتاً خاصّاً للبحث والتحقيق فقد جمع مطالب جميلة عن تمور المدينة وأسمائها المختلفة وقال: «... والتمر في المدينة أنواع كثيرة وهو من أحسن التمر، ومنه نوع يسمّى الحلوى، كلّ واحدة مثل الخيارة الصغيرة، يقطر العسل منها،... انتهى ما وجدناه، فجملته مائة وثلاثة عشر نوعاً...»[٢١].

زيارة مسجد قبا

تشرّف المؤلّف بزيارة مسجد قبا في يوم الاثنين السادس من شهر شوّال، وقد نقل مطالب مفيدة من كتب الحديث والتاريخ حول قبا ومسجده، ونقل أيضاً من تلك المصادر مساحة المسجد وتجديد عمارته على مرّ العصور ثمّ يقول: «... وهو الآن عتق بنيانه فهو محتاج إلى التجديد والعمارة، فنسأل الله تعالى أن ييسّر ذلك على يد أهل الخير...»[٢٢].

محراب الكشف

قال المؤلّف: «... وفي ذلك المسجد [مسجد قبا] محراب ومنبر عظيم وفي آخر الحائط القبلي محراب آخر يسمّى محراب الكشف؛ لأنّ النبيّ ﷺ كشف له هناك عن مكّة وعن الكعبة، وهناك محراب آخر يقال: إنّ الآية الشريفة نزلت هناك وهي قوله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ...﴾[٢٣] الآية، وهذه الآية مكتوبة على المحراب وبالقرب منه محراب آخر يقال له: مبرك الناقة... وهي آثار حسنة في مسجد مبارك، فينبغي التبرّك بها على كلّ حال، فصلّينا في كلّ محراب ركعتين»[٢٤].

مسجد عليّ بن أبي طالب، ومسجد السيّدة فاطمة، ومسجد الشمس

وممّا يجدر ذكره أنّ النابلسي ذكر كلاماً حول هذه المساجد الثلاثة بأنّها كانت قريبة لمسجد قبا وكانت عامرة أيضاً، وإليك نصّه:

«... ثمّ خرجنا من ذلك المسجد [يعني مسجد قبا] ومشينا قليلاً، فدخلنا إلى مسجد الإمام علي بن أبي طالب ﷺ، وهو مسجد صغير فصلّينا فيه ركعتين ودعونا الله تعالى، ثمّ خرجنا فمشينا قليلاً إلى مسجد السيّدة فاطمة رضي الله عنها، فصلّينا فيه ركعتين ودعونا الله تعالى، ثمّ خرجنا ومشينا قليلاً إلى مسجد يقال له مسجد الشمس، ... فدخلنا ذلك المسجد وصلّينا فيه ركعتين ودعونا الله تعالى...»[٢٥].

زيارة حمزة ﷺ بأحُد

قال المؤلّف: «... مزار سيّد الشهداء حمزة ﷺ، وهو في ذيل جبل أُحد، وحوله في الخارج قبور شهداء أحُد، وكانت قصّة أحُد هناك مع المشركين، فدخلنا إلى مزاره الممتلي بالهيبة والجلال، وعليه قبّة عظيمة، وحوله مسجد شريف فيه محراب، وله منارة لطيفة عالية، وقبره كبير عظيم، وعليه داير من الخشب في غربي المسجد، وله شبكة من الحديد... وقفنا هناك بقرب قبر السيّد حمزة ﷺ وقرأنا الفاتحة ودعونا الله تعالى...»[٢٦].

حفل المولد لحمزة سيّد الشهداء

قال المؤلّف: «... وخرجنا [من مزار حمزة] وقرأنا الفاتحة لبقيّة الشهداء، شهداء أحد، ودعونا الله تعالى عند قبورهم، ورأينا تلك المصاطب[٢٧] المعمّرة هناك لأكابر أهل المدينة المنوّرة، وعلمائها وأعيانها، كلّ واحد منهم له مصطبة معلومة، يجتمعون هناك في كلّ سنة في شهر رجب، يمكث الناس فيه من أوّل الشهر إلى ثاني عشر يوم منه، ويعملون المولد للسيّد حمزة ﷺ، وتخرج إليه البيّاعون بأنواع المآكل وغيرها، ويصير الموسم كأيّام منى في مكّة، ويأتي إلى هذا المولد أُناس من مكّة ومن الطائف ومن اليمن ومن العرب وغيرهم»[٢٨].

قبر هارون بن عمران

قال المؤلّف: «... وقد رأينا في رأس جبل أحُد قبّة، فأخبرونا أنّ فيها قبر هارون بن عمران عليهما السلام، وقد ذكر السمهودي في تاريخ المدينة في أوائل الفصل الأوّل من الباب الثالث عن ابن شبّة بسند لا بأس به... أقبل موسى وهارون عليهما السلام حاجّين فمرّا بالمدينة فخافا من يهود فخرجا مستخفين فنزلاً أحُداً فغشى هارون الموت، فقام موسى عليه السلام فحفر له لحداً، ثمّ قال: يا أخي إنّك تموت، فقام هارون عليه السلام فدخل في لحده فقبض فحثى عليه موسى عليه السلام التراب؛ انتهى، فوقفنا قبالة ذلك وقرأنا الفاتحة ودعونا الله تعالى ثمّ ذهبنا إلى مسجد القبلتين...»[٢٩].

زيارة مسجد القبلتين

قال المؤلّف: «... دخلنا إليه [مسجد القبلتين] متبرّكين به، ورأينا في داخله محراباً إلى جهة القبلة وفي خارجه محراباً آخر إلى جهة بيت المقدس، وهو مسجد قديم رثّ البنيان، بعضه متهدِّم... فدخلنا إلى داخله وصلّينا ركعتين إلى محرابه الذي نحو الكعبة ودعونا الله تعالى، وقد بلغنا أنّ بعض الجهّال من الحجّاج يصلّي ركعتين إلى المحراب الذي نحو بيت المقدس بقصد التبرّك بالقبلة الأُولى، بأمر الجهّال من المزورين، وهو فعل حرام لا يجوز، بل المعتمد لذلك يخشى عليه الكفر، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم»[٣٠].

زيارة المساجد الخمسة

قال المؤلّف: «ثمّ ذهبنا مع الاخوان إلى زيارة المساجد الخمسة بين هاتيك الجبال فابتدأنا بالصعود إلى مسجد الفتح الذي هو أعلى الجميع... ثمّ نزلنا إلى المسجد الذي في أسفل الجبل، المعروف بمسجد أبي بكر... ثمّ دخلنا إلى مسجد سلمان الفارسي... ثمّ ذهبنا إلى مسجد النبيّ صلى الله عليه وآله الذي بات فيه ليلة الأحزاب، وهو مسجد واسع ليس له سقف، فدخلنا إليه ودعونا الله تعالى فيه، وهو مكان يقال له شعب بني حرام... وهو الذي الآن يسمّى مسجد النبيّ صلى الله عليه وآله؛ لأنّه صلّى فيه، وتحوّلهم

إلى هذا الشعب كان بإذنهﷺ، ويقرب من ذلك مغارَة النبيّﷺ وهو كهف سلع وهو كهف بني حرام، مكان يقصد للتبرّك به»[٣١].

أقول: لم يذكر المؤلّف المسجد الخامس بل ذكر أربعة منها فقط وهي: مسجد الفتح، ومسجد أبي بكر، ومسجد سلمان الفارسي، ومسجد النبي، ويحتمل أنّ المراد من الخامس من تلك المساجد هو مسجد القبلتين.

ولا يخفى أنّ المساجد الموجودة الآن في هذه المنطقة المختصّة لحرب الأحزاب، هي كالتالي:

١ ـ مسجد الفتح ٢ ـ مسجد سلمان الفارسي ٣ ـ مسجد أبي بكر ٤ ـ مسجد فاطمة، وهذا المسجد صغير جدّاً ليس له سقف، وقد سدّوا بابه بالجدار الاسمنتي سنة ١٤٢٠ الهجرية، وقد ذكرت هذا المطلب حتّى يبقى كشاهد في زاوية من زوايا التاريخ؛ لأنّه يخاف هدمه وتخريبه. ٥ ـ مسجد الإمام علي بن أبي طالب.

زيارة مسجد النبيّ (مسجد غمامة)

قال المؤلّف: «ثمّ بعد صلاة العصر في الحرم النبوي وزيارة النبيّﷺ ذهبنا مع الإخوان إلى خارج الباب المصري وزرنا مسجد النبيّﷺ في خارج المدينة وعليه قبّة وفيه جلالة ومهابة وزرنا بالقرب منه مسجد أبي بكر ومسجد الإمام عليّ وتبرّكنا بتلك الآثار، وتملّينا بهاتيك الأنوار...»[٣٢].

أقول: يبدو أنّ المراد من المسجد في قوله: مسجد النبي، هو مسجد غمامة وأراد من المسجد معنى اسم المكان فقط. أي المحلّ الذي سجد فيه رسول اللهﷺ، وليس المراد منه المسجد النبويّ الشريف، ومسجد غمامة معروف الآن وهو بقرب مسجد الإمام علي عليه السلام ومسجد أبي بكر وتقام فيه صلاة الجماعة.

ولا يخفى أنّ الباب المصري كان في غرب المسجد النبوي الشريف ومن أراد أن يذهب إلى مسجد غمامة و... كان يخرج من الباب المصري الذي كان ملاصقاً

بسور المدينة المنوّرة، ولم يكن آنذاك باب في الناحية الغربية من المدينة المنوّرة سوى الباب المصري.

قبر محمّد بن عبدالله المحض

خرج الشيخ النابلسي ذات يوم إلى ضيافة صديق له كان بيته خارج الباب الشامي ـ كان الباب الشامي شمال المسجد النبوي الشريف وقبال جبل أحُد ـ وكان هناك قبر محمّد بن عبدالله المحض بن الحسن المثنّى ابن الإمام الحسن المجتبى سلام الله عليه.

قال المؤلّف: «... وكان في مقابلة المكان الذي نحن فيه، مدفن الإمام الزكي محمّد بن عبدالله المحض بن الحسن المثنّى ابن الإمام الحسن السبط ابن الإمام علي المرتضى رضي الله عنهم وعليه قبّة ذات هيبة وتلالي...»[٣٣].

مكتبة الحرم النبوي الشريف

زار الشيخ النابلسي خزانة الكتب الموجودة في مكتبة الحرم النبوي الشريف في يوم الثلاثاء، الخامس من شهر ذي القعدة الحرام، فوجد كتباً كثيرة في علوم شتّى منها: الجامع الكبير في الحديث للسيوطي في خمسة مجلّدات كبار. ومنها: تاريخ دمشق لابن عساكر في خمسمائة وسبعين مجلّداً، ونقل هذه العبارة من الجزء الأخير من تاريخ دمشق:

«... تمّ الجزء السبعون والخمسمائة، وهو آخر الأجزاء جميعها، وهذا آخر ما تيسّر من هذا الكتاب، والله الموفّق فيه للرشاد والصواب...»[٣٤].

ثمّ استعار النابلسي كلّ أجزاء هذا الكتاب من خزانة الكتب وقال:

«... فاستعرت هذه الأجزاء كلّها وجئت بها إلى منزلي وطالعت فيها ونقلت منها ما أردت، ثمّ أرجعتها إلى محلّها من خزانة الكتب المذكورة»[٣٥].

ليلة الكنيس

قال المؤلّف: «... وكانت هذه الليلة [السابعة عشرة من شهر ذي القعدة

الحرام] تسمّى عند أهل المدينة ليلة الكنيس؛ لأنّ في صبيحتها يكنسون الحرم الشريف، ورأينا بعض الناس من عادتهم أنّ من عليه ديناً منهم، يجمع شيئاً من حبّ القمح بمقدار ما عليه من الدين، ويضعه في خرقة بيضاء ويعقدها ويرميها من داخل الحجرة الشريفة من الشبّاك المكرّم، ويقولون: إنّ ذلك سبب لقضاء ما عليهم من الدين ببركة النبيّ ﷺ...

ثمّ من عادة أهل المدينة في مثل هذا اليوم [اليوم السابع عشر] أنّهم بعد فراغهم من كنس الحرم الشريف، يخرجون إلى خارج المدينة، ويذهبون إلى حدائق النخيل، يتنزّهون وينبسطون في المآكل والمشارب، ويحصل لهم الانشراح والصفاء... فيجتمعون في مكان يقال له القُرين؛ بصيغة التصغير، وهو قريب من المدينة على نحو نصف ساعة، ويبقون هناك إلى العشيّ، ثمّ يعودون كذلك بالذكر والنشيد، وتخرج النساء والرجال والأولاد لأجل الفرجة عليهم، ويصير يوماً عظيماً. وقد خرجنا نحن وجماعتنا إلى بستان هناك قريب من بئر بضاعة، يسمّى بالفيروزية وبقينا إلى آخر النهار...»[٣٦].

زيارة قبر الإمام جعفر بن محمّد الصادق

قال المؤلّف: «... ذهبنا مع بعض الأصحاب إلى جهة بئر بصة من جهة البقيع، وهو في داخل بستان فيه نخيل، وهناك بركة ماء واسعة بجانب ذلك [تلك] البئر... ثمّ عدنا إلى الحرم الشريف فزرنا في الطريق قبر سيّدنا جعفر الصادق رضي الله عنه، في مكان عظيم بقبّة مستقلّة، وقرأنا الفاتحة ودعونا الله تعالى، وصلّينا المغرب والعشاء في الحرم الشريف وزرنا النبيّ ﷺ»[٣٧].

إلى الميقات

خرج الشيخ النابلسي من المدينة المنوّرة يوم الأربعاء، وهو اليوم السابع والعشرون من ذي القعدة الحرام، متوجّهاً إلى مكّة المكرّمة لأداء مناسك الحجّ. وبما أنّ في مزاجه ضعفاً وأنّ الوقت غير قابل للتحمل، فلم يحرم من ميقات ذي

الحليفة؛ لأنّه أبعد المواقيت عن مكّة المشرّفة، فهو لأجل كلّ ذلك راجع الكتب المختصّة بفقه الحنفية، وبدأ أيضاً بكتابة رسالة حول الترخيص بالإحرام من رابغ.

وبعد أن أحرم مرافقوه من ميقات ذي الحليفة، سار إلى منزل الشهداء الذي يسمّى منزل التجّار وليس منزلاً للحجّاج، ثمّ سار إلى قرية الغزالة، ثمّ إلى قرية الجُدَيدة، ثمّ وادي الصفراء، وهي مشتملة على نحو ستّ أو سبع قرى؛ يمنة الذاهب إلى مكّة ويسرته... ثمّ إلى بدر.

قال المؤلّف: «... وبدر هذه كثيرة الماء يجري فيها الماء على وجه الأرض، غير البركة التي يستقي منها الحجّاج... وهناك محلّ الشهداء الذين استشهدوا في غزوة بدر مع النبيّ ﷺ، وهناك جامع الغمامة، وهو جامع عظيم مبارك، فمكثنا في ذلك المنزل مع الحجّاج...»[٣٨].

ثمّ سار النابلسي مع القافلة حتّى نزل في منزل القاع، وليس فيه ماء وهو برّية واسعة سهلة الجوانب، لا انخفاض ولا ارتفاع، ثمّ وصل إلى قرية المستورة، ثم سار نحو ساعتين حتّى وصل منطقة رابغ.

قال المؤلّف: «ذهبنا فاغتسلنا في تلك البركة الواسعة، وكان الماء في نصفها وهي غير نابعة، والناس ينزلون فيها للاغتسال، ثمّ أحرمنا بالعمرة من ذلك الميقات* بقصد التمتّع».

ثمّ قال: «... ثمّ مررنا بمكان فيه من الرمل الكثير... يسمّى ذلك المكان بالرمل الدفين... فقطعناه مع الحجّاج بجهد جهيد وتعب ما عليه من مزيد...»[٣٩].

* لم نجد في رحلته هذه إشارة إلى ميقات الجحفة، بل المذكور فيما كتبه هو: «ثمّ أحرمنا بالعمرة من ذلك الميقات...». وكتب أيضاً في الصفحة ٤٣٧: «وعملنا رسالة في الترخيص بالإحرام من رابغ...»، فعلى ذلك لا يعلم من هذين النصّين أنّ المؤلّف هل أحرم من الجحفة ـ نفس الميقات ـ أو أحرم من المحاذاة، ولا يخفى أنّه هل منزل رابغ كان محاذياً للميقات أم لا؟ فهذا أوّل الكلام!، ولابدّ للحصول على كلّ ذلك إلى الدقة والبحث والمراجعة.

منازل الحجيج في الطريق إلى مكّة سنة ١١٠٥ الهجرية

ميقات ذي الحليفة (المدينة المنوّرة)← منزل الشهداء ← قرية الغزالة← قرية الجُديدة← وادي الصفراء← بدر← منزل القاع← قرية المستورة← رابغ← الجحفة← منزل القُديد (بالتصغير) قرية من قرى مكّة المشرّفة← عقبة السكر← خُليص (بالتصغير) قرية من قرى مكّة المشرّفة← مُدَرَّج عُسْفان وهو كثير الأوعار من الرمل والأحجار، وادي بين جبلين، فيه العلوّ والهبوط، والارتفاع والسقوط، والاستقامة والإعوجاج، بحيث يضرب به المثل بين الحجّاج، يقولون للمعوج غير المستقيم: من كلّ شيء يهان، كأنّه مُدَرَّج عُسْفان← عُسْفان، وهو قرية من قرى مكّة المشرّفة← وادي فاطمة، ويقال: إنّما سمّي بذلك؛ لأنّه وقف للسيّدة فاطمة ـ سلام الله عليها ـ وفيه ماء غزير، ونخل كثير، وبساتين مؤتلفة، وفواكه مختلفة← التنعيم[٤٠].

مكّة المكرّمة

قال المؤلف: «... ذهبنا جهة مكّة المشرّفة... حتّى دخلنا قبل جميع الحجّاج... وكان ذلك اليوم؛ يوم الجمعة، وهو اليوم السادس من ذي الحجّة، فتفرّقت الحجّاج في مكّة... وحين شاهدنا الكعبة تذكّرنا بشعر محمّد بن محمّد البدري الأندلسي الغرناطي:

أمولاي بالباب ذو فاقة وهذا محطّ خطايا الأُمم
فجُد لي بعفوك عن زلّتي فجود الكريم بقدر الكرم ...»[٤١].

لقد ذكر الشيخ النابلسي مطالب حول مكّة المكرّمة من وجه تسميتها وأسمائها وجبالها وتجديد بناء الكعبة على مرّ العصور، واستفاد من المصادر الخاصّة بهذا المورد؛ كالأحكام السلطانية للماوردي، وأخبار مكّة للأزرقي، والإعلام بأعلام بيت الله الحرام و...

وللأسف الشديد أنّه لم يحكِ ما رأى بعينه في الحرم المكّي الشريف وما جاوره من الأماكن والآثار؛ لنستفيد منه ونعرف مافيها أيضاً، بل المؤلّف اكتفى بنقل ما جاء في المصادر الموجودة في أيدينا، والحقّ أنّه ذكر أشياء كثيرة من المشاهد والآثار التي لا يمكن التعرّف عليها بسهولة ولم يذكر في ساير الكتب مثلها.

الهوامش :

(١) نهاية المتن في الصفحة: ٣٢٠.
(٢) أراد المؤلف من الحرب في المصرع الأوّل، قبيلة حرب.
(٣) الصفحة: ٣٢١ من الكتاب.
(٤) الصحيح هو محمّد بن علي بن أبي طالب بن عبد المطّلب.
(٥) الحقيقة والمجاز: ٣٢٢.
(٦) المصدر نفسه: ٣٢٤.
(٧) المصدر نفسه: ٣٢٤ ـ ٣٢٥.
(٨) المصدر نفسه: ٣٢٥ ـ ٣٢٦.
(٩) المصدر نفسه: ٣٢٨.
(١٠) المصدر نفسه: ٣٣٢.
(١١) المصدر نفسه: ٣٣٤ ـ ٣٣٥.
(١٢) المصدر نفسه: ٣٣٥ ـ ٣٣٦.
(١٣) المصدر نفسه: ٣٤٣.
(١٤) المصدر نفسه: ٣٤٤ ـ ٣٤٥.
(١٥) المصدر نفسه: ٣٤٥.
(١٦) المصدر نفسه: ٣٥١.
(١٧) المصدر نفسه: ٣٥٥.
(١٨) المصدر نفسه: ٣٦٧ ـ ٣٦٨.
(١٩) المصدر نفسه: ٣٦٨.

(٢٠) المصدر نفسه: ٣٦٨.
(٢١) المصدر نفسه: ٣٧٠ ـ ٣٧١.
(٢٢) المصدر نفسه: ٣٨٩.
(٢٣) سورة التوبة: ١٠٨.
(٢٤) الحقيقة والمجاز: ٣٩٠.
(٢٥) المصدر نفسه: ٣٩٠ ـ ٣٩١.
(٢٦) المصدر نفسه: ٣٩٥.
(٢٧) المصاطب جمع مصطبة، هي مجتمع الناس، وهي أرض شبه الدكّان، يجلس عليها ويتّقىٰ بها الهوام بـالليل. مجمع البحرين ٢: ٦٠٧.
(٢٨) الحقيقة والمجاز: ٤٠١.
(٢٩) المصدر نفسه: ٤٠١.
(٣٠) المصدر نفسه: ٤٠١ ـ ٤٠٢.
(٣١) المصدر نفسه: ٤٠٢.
(٣٢) المصدر نفسه: ٤٠٨.
(٣٣) المصدر نفسه: ٤١٥.
(٣٤) المصدر نفسه: ٤٢٥.
(٣٥) المصدر نفسه: ٤٢٦.
(٣٦) المصدر نفسه: ٤٣١.
(٣٧) المصدر نفسه: ٤٣٥.
(٣٨) المصدر نفسه: ٤٣٨.
(٣٩) المصدر نفسه: ٤٣٩.
(٤٠) المصدر نفسه: ٤٣٩ ـ ٤٤٠.
(٤١) المصدر نفسه: ٤٤١.